بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحج

الحمد لله رب العالمين، نحمده حمد الشاكرين، ونصلي ونسلم على حبيبه محمدﷺ، سيد الأولين والآخرين، فهذه سورة الحج، وهي سورة آياتها مختلطة بين ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة، تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميعًا ﴿ٱتَّقُواْ﴾ عذاب ﴿رَبَّكُمۡۚ﴾ وذلك بطاعته في فعل ما أمر به، والبعد عما نهىٰ عنه، حيث ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ﴾ الأرض وحركتها الشديدة، عند قيام ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ وهي يوم القيامة ﴿شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ مهول، فظيع.

وفي حديث الصور يقول النبي ﷺ: «**نفخ فيه ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين، وإن عند نفخة الفزع: يُسَيِّرُ الله الجبال، وترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة، أبصارها خاشعة، وتكون الأرض كالسفينة.. تضربها الأمواج، أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح**».

﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾ واقعة فيه: ﴿تَذۡهَلُ﴾ بسببها وتغفل ﴿كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾ وهي ترضع بالفعل ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ من غير فطام ﴿وَتَضَعُ﴾ بسببها، وتجهض ﴿كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ﴾ في بطنها ﴿حَمۡلَهَا﴾ من غير تمام.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ من هولها ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ من شدة الخوف ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ حقيقة ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ﴾ الذي يرونه، والذي أذهب عقولهم ﴿شَدِيدٌ﴾.

وبعد أن أمر ربنا عز وجل بالتقوى، وخوّف من أهوال الساعة؛ يبين السبب الرئيسي الذي يصرف الناس عن تقوىٰ الله، فيقول سبحانه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿و﴾ مع هذا الأمر بالتقوىٰ، فإنه ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فريق كفر بالله تعالىٰ، وهم: كل ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى﴾ شرع الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فينكر وحدانية الله، أو ينكر البعث، أو ينكر نبوة محمد ﷺ، أو يقول: إن القرآن أساطير الأولين.

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾ من الإنس أو الجن ﴿مَّرِيدٍ﴾ عات، جبار، متمرد، وذلك في ضلالاته، وبدعه، وأهوائه.

هذا الشيطان الذي يتبعه هذا الخاسر:

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

يعني: ﴿كُتِبَ﴾ علىٰ الشيطان ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ واتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ عن الحق ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ ويدعوه ﴿إِلَىٰ﴾ ما يلقيه بسببه في ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهو عذاب النار الحار، المؤلم غاية الألم.

لمَّا كان جدال الكفار المعاندين في وحدانية الله وقدرته، وفي البعث بغير علم؛ ذكر الله تعالى دليلين علىٰ ذلك:

أحدهما: في نفس الإنسان.

والثاني: في الأرض التي يشاهدها، حيث قال تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ

وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الذين تجادلون في الله بغير علم ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ شك ﴿مِّنَ﴾ وقوع ﴿ٱلْبَعْثِ﴾، فاسمعوا هذين الدليلين:

الدليل الأول: في أنفسكم وهو موضوع خَلْقِنا لكم ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ في سبعة مراحل:

المرحلة الأولى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ وهو أبوكم آدم عليه السلام، وأنتم باعتبار غذائكم.

المرحلة الثانية: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي المني، وأنا الذي قلبت هذا التراب إلىٰ هذا الماء الرقيق.

المرحلة الثالثة: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم المتجمد الذي يعلق بجدار الرحم.

المرحلة الرابعة: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهي قطعة لحم صغيرة ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ تامة الخلق ينفخ الروح فيها ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ بعدم نفخ الروح فيها. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بذلك: كمال قدرتنا علىٰ بعثكم وإعادتكم بعد موتكم.

المرحلة الخامسة: ﴿وَنُقِرُّ﴾ نثبت ﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ مما نفخ فيه الروح ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت الولادة، ونسقط من الأرحام ما نشاء، وهي غير المخلقة التي لم تنفخ فيها الروح ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: ما نفخ فيه الروح، من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي: أطفالًا.

المرحلة السادسة: ﴿ثُمَّ﴾ نحييكم ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟﴾ من السن والعمر ﴿أَشُدَّكُمْ﴾ أي: قوتكم.

المرحلة السابعة: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ قبل بلوغ الأشد، أو بعده بقليل، ﴿وَمِنكُم مَّن﴾ يعيش حتىٰ ﴿يُرَدُّ﴾ ويصل ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الهرم، والضعف الشديد، في القوة، والعقل، والفهم

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ وينسى ﴿مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: كل ما كان عنده من علم ومعرفة ينساه.

وهذا هو **الدليل الأول** علىٰ قدرة الله علىٰ البعث، أليس مَن قَدِرَ علىٰ البدء قدر علىٰ الإعادة؟ بلىٰ.

والدليل الثاني: في الكون وهو: موضوع الأرض.

﴿وَتَرَى﴾ أيها المجادل المنكر لقدرة الله، ترى ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بعينيك ﴿هَامِدَةً﴾ يابسة لا تتحرك ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ من السحاب بالمطر، أو من الأنهار، والعيون ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت ﴿وَرَبَتْ﴾ زادت وارتفعت قشرتها الأرضية ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن﴾ جوفها ﴿كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ صنف من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن جميل، أليس ذلك بدليل علىٰ وحدانية الله، وقدرته علىٰ البعث والإعادة..؟

بلىٰ وألف بلىٰ، أي: هو الواحد وهو القادر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

يعني: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه من مراحل خلق الإنسان، وإحياء الأرض بعد موتها، حاصل ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت، الواحد، القادر، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ وحده ﴿يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ويبعثهم من قبورهم؛ ليحاسبهم ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهو سبحانه لا يخلق عبثًا، ولا يترك الخلق دون حساب.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

يعني: لولا ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ وهي يوم القيامة ﴿ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ دون شك، ولولا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ليحاسبهم، ما خلق الله ما خلق.

ولذلك، فالإيمان بيوم القيامة والبعث من أصول الدين، والاستعداد لذلك بوسائل النجاة، وهي الإيمان والعمل الصالح من دلائل التوفيق، وهذا أمر في غاية الوضوح.

ومع هذا الوضوح، فإن الله عز وجل يخبرنا قائلًا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

أي: ﴿و﴾ مع الأمر بالتقوىٰ، ووضوح الأدلة علىٰ قدرة الله وعلىٰ البعث، فإنه يوجد ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فريق آخر كفر بالله تعالىٰ، وهم كل:

١ ـ ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى﴾ شرع الله، وقدرته علىٰ البعث ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ صحيح يستند إليه ﴿وَلَا هُدًى﴾ معه من وحي يرشده ويهديه ﴿وَلَا﴾ دليل معه من ﴿كِتَٰبٍ﴾ سماوي ﴿مُّنِيرٍ﴾ أي: له نور الحق.

٢ ـ ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ أي متكبرًا عن قبول الحق واتباعه، ويجادل ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿عَن﴾ معرفة ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ واتباع هديه، هذا الخاسر المجادل ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ إهانة ومذلة وحقارة ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ بالنار.

ونقول له ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: بسبب كفرك وكبرك وتكذيبك، وإضلالك الناس عن دين الله، وهذا هو العدل معه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يظلم أحدًا من خلقه.

وهذا فريق ثالث من الناس، يقول المولىٰ جلت حكمته:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ مع الأمر بالتقوىٰ، ووضوح الأدلة علىٰ قدرة الله، والبعث وتخويف المعاندين؛ فإنه يوجد ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فريق ثالث، وهم كل:

١ ـ ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ من الدين، غير مستقر فيه ولا مطمئن له، فهو

مذبذب حائر ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ من صحة في جسمه، وسعة في عيشه؛ سكن واطمأن لهذا الدين وعَبَد الله، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء واختبار، في صحته، أو في ماله، أو في ولده أو غير ذلك ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ سخطًا، وعدم رضى، وتوقف عن عبادة الله، وبذلك يكون قد ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا﴾ لعداوة أهل الإيمان وبغضهم له، وعدم ثقة أهل الكفر والمعاصي فيه، ﴿وَٱلْآخِرَةَ﴾ كذلك لدخوله النار.

٢ـ ومن ﴿يَدْعُوا۟﴾ أي: يعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غير الله، من الأصنام، والدنيا، والهوىٰ، وغير ذلك ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ لو لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ لو عبده.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يفعله ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الحق والصواب؛ حيث إنه ﴿يَدْعُوا۟﴾ يعبد ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ له ﴿أَقْرَبُ﴾ وآكد ﴿مِن نَّفْعِهِۦ﴾ الذي يتخيله، حقًّا ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ والناصر، هذا الإله المزعوم ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ الصاحب هو، والعابد لهذا الإله.

ولما ذكر الله حال أهل الضلالة الأشقياء، ذكر عقيبهم حال الأبرار، أهل الهدى السعداء جعلنا الله وإياكم منهم، فقال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل، كما يدخل الذين عصوه، والذين كفروا به وعاندوا رسله في النار ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ به، واتبعوا رسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي كل ما يرضي الله تعالى، ويسعد العباد، ويصلح البلاد؛ يدخلهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ثوابًا لهم وإسعادًا، وهو سبحانه قادر علىٰ هذا، وهذا، من تعذيب العصاة، وتنعيم المطيعين، ولا غرابة في هذا، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

هذا، ومن جملة ما يريده الله ويفعله: نصره لحبيبه محمد ﷺ، وإعلاء شأن دعوته، ورفع راية رسالته، لذلك:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾ أي: يكره محمدًا، ويتخيل، ويتمنىٰ من الذين يجادلون في الله بغير علم؛ اتباعًا للشيطان، أو من الذين يجادلون في الله بغير علم؛ غرورًا وتكبرًا وعنادًا، أو من الذين يعبدون الله علىٰ حرف، من كان يظن من هؤلاء ﴿أَن لَّن﴾ ينصر الله محمدًا ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بإعلاء كلمته، وإظهار دينه، ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ بإعلاء درجته، والانتقام ممن كذبه: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: فليأت بأي شيء، من حبل، أو آلة وليصعد به ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ هذا الوحي، ليذهب بذلك غيظه، وبعد أن يفعل لو استطاع ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ في نفسه، ويتفكر في حاله؛ ليعرف ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ أي: حيلته هذه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ في قلبه، ويجده في نفسه؟ أبدًا، إذن دعهم في غيظهم يتحرَّقون.

ولذلك، لا يجوز للمسلم أن يشك في نصر الله، بل عليه أن يصبر مهما كانت الظروف، ومهما تأخر النصر.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

يعني: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وعلىٰ مثل هذا الوضوح ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ دلائل ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات في أن الله هو الواحد، وهو القادر، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ وحده سبحانه ﴿يَهْدِى﴾ إلىٰ الإيمان، والطاعة ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايته.

ثم تحدث ربنا عن جميع خلقه باعتبار معتقداتهم، فقال جل شأنه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

قال العلماء: بينت هذه الآية أن الأديان ستة، واحد للرحمن وهو الإسلام، وخمسة للشيطان. وتفصيلها كالتالي:

الأول: الإسلام، وأهله هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وبرسوله وباليوم الآخر.

الثاني: اليهودية، وأهلها هم ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ ولا يؤمنون لمحمد ﷺ.

الثالث: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ وهم قوم يشبه دينهم دين النصارىٰ، إلَّا أن قبلتهم نحو مهب الريح من الجنوب، يزعمون أنهم علىٰ دين نوح عليه السلام، وهم كاذبون.

الرابع: النصرانية ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وهم الذين يؤمنون بعيسىٰ عليه السلام، ولا يؤمنون بمحمد ﷺ.

الخامس: ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ وهم قوم يعبدون النار، وقيل الشمس، وقيل غير ذلك، وهم يستعملون النجاسات.

السادس: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ مع الله غيره، من صنم، أو عجل، أو خلافه.

هؤلاء جميعًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ حيث يدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أفعال هؤلاء ومعتقداتهم ﴿شَهِيدٌ﴾ عالم به، ومحيط بهم، وسيجازيهم جميعًا يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم أيها الإنسان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ خضوعًا، وإذعانًا، وطاعة هذه الأشياء:

الأول: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة.

الثاني: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كل من في الأرض ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم﴾[الرعد:١٥].

الثالث: ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾.

الرابع: ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ .

الخامس: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ بأجرامها، وكواكبها، ومجراتها.

وهذه الثلاثة: معطوفة علىٰ ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من عطف الجزء علىٰ الكل.

السادس: ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ بأحجامها وتنوعها، وألوانها.

السابع: ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ بفصائلها، وثمارها.

الثامن: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ على كثرتها.

التاسع: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يسجدون كذلك، باختيارهم الطاعة.

وهذه الأربعة: معطوفة على ﴿مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من عطف الجزء أيضًا على الكل ولكن هناك ﴿كَثِيرٌ﴾ من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ لتكبرهم، وامتناعهم عن الخضوع لله، وهم الكافرون وهذا العذاب لهم: إهانة من الله ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ ويشقه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يسعده، وينقذه من الضلال والعذاب غير الله، الذي يفعل ما يريد حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

هذا، ولمَّا بين ربنا عز وجل أن الأديان ستة: فريق منهم مؤمنون، والباقون منهم كافرون؛ وأن الله تقدست أسماؤه يفصل بينهم يوم القيامة. وقد ذكر تعالى بعض أحوالهم في يوم القيامة هذا، فقال:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى عن أهل هذه الأديان: ﴿هَٰذَانِ﴾ فريقان ﴿خَصْمَانِ﴾ مختلفان مختصمان ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ فريق منهم مؤمن بربه، مصدق لرسله، متبع لشرعه وهم المؤمنون، وفريق منهم، وهم الخمسة الباقون، وهم الذين كفروا، فلم يؤمنوا، ولم يصدقوا، ولم يتبعوا هؤلاء في يوم القيامة، تختلف أحوالهم ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أحوالهم وجزائهم ما يلي:

أولًا: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ يلبسونها.

ثانيًا: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ الماء ﴿ٱلْحَمِيمُ﴾ البالغ نهاية الحرارة، الذي حينما يصب عليهم ﴿يُصْهَرُ﴾ يذاب ﴿بِهِۦ﴾ من شدة حرارته ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ من الأمعاء وغيرها، كذلك ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾.

ثالثًا: ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ﴾ سياط ومطارق ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ يُضربون بها، وهم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ يلحقهم فيها خرجوا، ولكن قبل أن ينفصلوا عنها، ضربوا بالمقامع و ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وقيل لهم ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ إيلامًا وإهانة وامتهانًا.

هذا جزاء الخصم الكافر، فما جزاء الخصم المؤمن؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

أخبرت هذه الآيات أن من أحوالهم وجزائهم ما يلي:

أولًا: طيب المسكن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

ثانيًا: طيب الحلية ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

ثالثًا: طيب الملبس ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

رابعًا: طيب القول ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ فيها إلى ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ حيث ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

خامسًا: طيب الطريق والنهاية ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو دينه سبحانه، المؤدي إلىٰ الجنة التي دخلوها.

بعد أن بين العزيز الحكيم جزاء كل فريق من المختصمين في الآخرة، بدأ بذكر بعض أفعال بعض الكافرين، فقال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وهم المشركون الذين ﴿يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ﴾ الدخول في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه ابتداءً، ويصدون كذلك المؤمنين عن دخول ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لعبادة الله فيه، هذا المسجد ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ﴾ متعبدًا

﴿لِلنَّاسِ﴾ كلهم ﴿سَوَآءً﴾ متساوون لا فرق بين ﴿ٱلْعَـٰكِفُ﴾ المقيم ﴿فِيهِ﴾ وبين ﴿البادِ﴾ البعيد عنه، هؤلاء الذين كفروا نذيقهم من عذاب أليم.

كذلك ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ أي: في المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ أي: إلحادًا، وعدولًا عن الصواب بأية معصية ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ولمَّا عظم ربنا المسجد الحرام، وخوَّف من المعصية فيه ذكر لنا عز وجل شيئًا من تاريخه، فقال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ﴾ وقت أن ﴿بَوَّأْنَا﴾ بيّنا ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ الحرام، وأريناه أصله وأساسه، بعد أن كان غُطِّي، وانطمرت معالمه بسبب الطوفان، وأمرناه بما يلي:

الأمر الأول: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾.

الأمر الثاني: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ من الأصنام والأقذار ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ فيه ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ به.

الأمر الثالث: ﴿وَأَذِّن﴾ أي: ناد ﴿فِى ٱلنَّاسِ﴾ كلهم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ إليه ﴿يَأْتُوكَ﴾ أي: يأتون إليه بسبب ندائك ﴿رِجَالًا﴾ أي: مشاة على أرجلهم و ركبانًا ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾ جمل ﴿ضَامِرٍ﴾ أي: مهزول، يعني: بكل وسيلة، ولو كانت غير مريحة ﴿يَأْتِينَ﴾ أي: هذه الجمال الهزيلة، أو الوسائل غير المريحة ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ من كل طريق ومكان وبلد بعيد.

وأذّن إبراهيم ونادىٰ وأسمع الله مَن كتب له الحج فلبىٰ.

ولكن لماذا يأتون؟

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

نعم، يأتون ﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ ليحضروا ﴿مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ دنيوية كالتجارة وغيرها، بشرط أن لا يكون المجيء بسببها هي، والحج تبع لها، بل يكون الحج أصل وهي تبع له.

ودينية بأن: ﴿يَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ بالتهليل والتسبيح والتكبير ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾ وهي أيام الحج كلها، ابتداءً من لحظة الإحرام إلىٰ الانتهاء من أيام التشريق، وكذلك يذكروا اسم الله ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ وهي: الإبل، والبقر، والضأن، والغنم، أي: عند ذبحها، في يوم العيد، وما بعده، ولأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون من الأكل منها، فقد أباح الله لهم ذلك، حيث يقول ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي: من لحومها ثم يقول حثًّا علىٰ الإنفاق والتصدق ﴿وَأَطْعِمُوا۟﴾ منها ﴿ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ وبعد الذبح يقول المولىٰ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟﴾ يزيلوا ﴿تَفَثَهُمْ﴾ أوساخهم وشعرهم الزائد، بالاستحمام والحلاقة.

﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ التي نذورها لله تعالىٰ من لحوم، وأموال.. إلخ.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟﴾ وهم علىٰ نظافة وطهارة ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ طواف الإفاضة وبذلك يكون قد انتهىٰ أداؤهم لمناسك فريضة الحج.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الذي ذكرناه أصبح واضحًا أيضًا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي:

ما لا يحل هتكه، وهي: كل ما كلف الله به عباده، آمرًا به أو ناهيًا عنه، ويدخل فيها مناسك الحج، ويدخل فيها كذلك الحرمات الخمس، وهي:

البيت الحرام، والمشعر الحرام، والشهر الحرام، والبلد الحرام، والمسجد الحرام..

﴿فَهُوَ﴾ أي: هذا التعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ثم عاد الكلام إلىٰ بيان بعض أحكام الحج، فقال تعالىٰ: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ حيث كان يُظَن أنها تحرم بالإحرام، كما يحرم الصيد علىٰ المحرم، فبيّن ربنا أنها حلال ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من المحرمات فهو حرام.

ولمَّا حث ربنا علىٰ تعظيم حرماته، عقب علىٰ ذلك بالأمر الإلٰهي باجتناب الأوثان وقول الزور ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.

ثم قال: وكونوا ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له الدين ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ أحدًا.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ غيره ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ سقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلىٰ الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ وهو في الهواء، فتقطعه وتأكله ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ وتسقطه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد مهلك لمن سقط فيه.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكرناه أصبح واضحًا أيضًا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أوامره، ومناسكه في الحج، ومن ذلك الهَدي الذي يساق إلىٰ أهل الحرم، ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: فإن تعظيمها ﴿مِن﴾ دلائل ﴿تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ ولكن، لماذا كان تعظيم الهَدي من علامات تقوى القلوب؟ يقول تعالىٰ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ من الركوب، وشرب ألبانها عند الضرورة، وذلك ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو ساعة نحرها، بعد وصولها إلىٰ ﴿مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

هذا، وليست المناسك التي يذكر اسم الله عليها وعندها خاصة بهذه الأمة، يقول جل شأنه:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

أي: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم قبلكم أرسل الله لها رسولًا، وطالبها بشريعة ﴿جَعَلْنَا﴾ لهم ﴿مَنسَكًا﴾ أي: ذبحًا وإراقة دماء؛ طاعة لله ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ وحده ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ﴾ عند ذبحه وليس في هذا غرابة!! ﴿فَإِلَٰهُكُمْ﴾ جميعًا ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو الله سبحانه وتعالىٰ، مهما تعددت الشرائع وما دام الأمر كذلك ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ﴾ انقادوا، وأخلصوا، واستسلموا لحكمه وطاعته.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾. قد يقول قائل: من هم المخبتون؟ فيكون الجواب الإلٰهي:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: المخبتون هم ﴿الَّذِينَ﴾ وصفوا بهذه الصفات:

الأولىٰ: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ﴾ خافت منه ﴿قُلُوبُهُمْ﴾.

الثانية: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من الابتلاءات.

الثالثة: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها.

الرابعة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يؤدون حق الله في أموالهم، ويتصدقون متطوعين بعد ذلك علىٰ الفقراء والأهل والأقارب.

ثم يعود الحديث إلىٰ شعائر الله، التي أمر الله بتعظيمها فيما سبق قائلًا عز وجل:

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: ﴿وَالْبُدْنَ﴾ وهي: الإبل والبقر ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ التي

يجب تعظيمها باختيار الجيد الطيب منها للحرم، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ في الدنيا، وفي الآخرة. ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند ذبحها ﴿صَوَافَّ﴾ واقفة، مصفوفة.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ سقطت ﴿جُنُوبُهَا﴾ على الأرض، وسكنت حركتها تمامًا، فجهزوها واطبخوها، وبعد ذلك ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ إن شئتم ﴿وَأَطْعِمُوا﴾ من لحومها ﴿الْقَانِعَ﴾ المحتاج الذي لا يسأل؛ لأنه قانع راض بما عنده ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يسأل.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما أمرناكم بنحرها وذبحها على هذا النحو ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ ذللناها لكم، لتنتفعوا بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على إنعامه بكم وعليكم، واعلموا أنه ﴿لَنْ يَنَالَ﴾ صاحبها رضى الله، بسبب لحومها أو دمائها فقط، دون إخلاص منه ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ أي: بمراعاة النية والإخلاص، وتحقيق شروط التقوى.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: من أجل ذلك ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ على نعمه، وعند ذبحها ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ وأرشدكم إليه، ثم يقول ربنا حثًّا على الإجادة في الأداء: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالثواب الجزيل على إحسانهم.

إن الآيات السابقة كانت تتحدث عن المناسك والعبادات، وأن الذين كفروا كانوا يصدون المسلمين عن سبيل الله والمسجد الحرام!! ومن المعقول أن تحتاج هذه المناسك والعبادات إلى مَن يدافع عنها ضد هؤلاء الصادين عن سبيل الله، وبالطبع هذه المدافعة سيكون فيها قتال ولهذا وغيره، كان التمهيد للإذن بالقتال في قوله تعالى:

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ﴾ بقدرته ﴿عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ به، وتوكلوا عليه، وأنابوا إليه شر الأشرار، وكيد الفجار، حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ للأمانة ﴿كَفُورٍ﴾ للنعمة.

وفي هذه الآية وعد من الله بنصرة المؤمنين حيث يجعلهم في غاية الثقة، والاطمئنان.

ومن ثَمّ كان الإذن لهم بالقتال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

يعني: ﴿أُذِنَ﴾ أي: أذن الله ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ من أعدائهم، وهم المؤمنون؛ بأن يقاتلوا مَن يقاتلونهم، ذلك الإذن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ظُلِمُوا۟﴾ من أعدائهم الكافرين هذا، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ بدون قتال لهم ﴿لَقَدِيرٌ﴾ ولكن يريد تبارك وتعالىٰ من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، ونشر دعوته، وإعلاء كلمته، وتطبيق منهجه.

ومن صور هذا الظلم الذي وقع علىٰ المؤمنين ما يذكره ربنا في قوله تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أذن لهم بالقتال، هم مَن ﴿أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ولكن ظلمًا وعدوانًا. وما ذلك الإخراج لهم ﴿إِلَّآ﴾ بسبب إيمانهم وقولهم ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وحده، ثم يبين ربنا جلت حكمته أنه يحفظ دينه بهذا الأمر، وهو رد العدوان حيث يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار وقتالهم، ونصره لهم في كل العصور؛ لاستولى أهل الشرك علىٰ أهل الأديان، و﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ بأيدي أهل الكفر ﴿صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾. يقول عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ﴾ من عباده ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: من ينصر دينه بالعمل بأحكامه، والالتزام بتشريعاته، وإعلاء شأنه، وكذلك بالدفاع عن أهله، وصيانة حرماته، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ علىٰ هذه النصرة ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمنعه منها أحد.

وبعد ذلك، يبين الله عز وجل أن هؤلاء الذين يدافع سبحانه عنهم، والذين أذن لهم بالقتال هم أيضًا:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

هذا وصف من الله تعالىٰ لمن يستحقون نصره يعني: هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ظُلموا، وأذن لهم بالقتال، ونصروا دين الله ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بنصرنا لهم علىٰ أعدائهم فعلوا هذه الأمور:

﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وعلموا جيدًا أن ﴿لِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فتوكلوا عليه، وفوضوا الأمر في كل شيء إليه.

ولمَّا كان قتال الأعداء للمسلمين ناتجًا عن تكذيبهم لمحمد ﷺ بيَّن الله للنبي عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين تثبيتًا لهم أن هذا التكذيب وهذا الإيذاء، طبيعة الكافرين لأهل الحق في كل العصور، ولستم وحدكم في ذلك، فاصبروا وجاهدوا، حتىٰ يأتي نصر الله، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

يعني: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أي: كفار أمتك فلا تبتئس، ولا تتأثر من تكذيبهم لك، فسأمهلهم، ثم آخذهم وأعذبهم عذابًا شديدًا ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هؤلاء، وأمهلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ﴾ وأهلكتهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: انظر كيف إنكاري عليهم وعقابي لهم، وهؤلاء مثلهم لا يفلتون مني، ولا ينجون من عقابي ما داموا مصرين علىٰ الكفر، والعناد، والتكذيب.

أيضًا، أين قُرَاهم ومساكنهم؟ هلك أهل هذه القرىٰ، وخربت بيوتهم، وتعطلت آبارهم، وسكنوا الهواء وانهدمت قصورهم الرائعة.

أفلا يعتبر بهؤلاء وما حدث لهم، كفار هذا العصر؟!!

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

أي: ﴿أ﴾ غفلوا ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليعتبروا بما حدث لهذه الأمم، وهم يمرون علىٰ ديارهم؟!! فليسيروا ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ خلال سيرهم ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ ما حدث، ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ﴾ عما حدث ليعتبروا ويؤمنوا، ولكنهم لم يعتبروا ولم يؤمنوا، بعد أن ساروا، ورأوا، وسمعوا، حقًّا ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن﴾ العمىٰ الحقيقي هو أن ﴿تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وقد عميت قلوبهم، ولذلك لم يعتبروا، ولم يؤمنوا. بل أكثر من هذا..

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

يعني: ومن تكذيبهم واستهزائهم أنهم ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: يطلبون نزوله بهم سريعًا، وهم لا يعلمون أن الله لا يخلف وعده بقيام الساعة، وبعث الناس، وتكريم المؤمنين، وتعذيب الكافرين، وهم لا يعلمون أيضًا أن ﴿يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ مقداره ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أنتم ولذلك هم يستعجلون العذاب؛ ظنًا منهم أنه لن يكون.

ثم يقول الله تعالى لهم:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

يعني: فلا تغتروا بإمهالي لكم، فكم ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ وأخرت العذاب عن أهلها ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ بكفرها، مثل ظلمكم بكفركم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب، كما سأعذبكم في الدنيا ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أيضًا في الآخرة، فيكون العذاب

الأليم الأبدي فهل تعتبرون، فتؤمنون..؟

يا محمد.. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، المستهزئين به وللدنيا كلها معهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميعًا ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالعذاب ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح، وكذلك بشير للمؤمنين بالنعيم.

وعلىٰ ذلك، فالاختيار بين الكفر والإيمان لكم، وبكامل حريتكم.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

أي: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ هداهم الله، و ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقد فازوا؛ حيث إن ﴿لَهُم﴾ عند ربهم ﴿مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

و أما ﴿ٱلَّذِينَ﴾ شقوا و ﴿سَعَوْا۟ فِىٓ﴾ إبطال ومعاندة ومقاومة ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا، والهادية لعبادنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لها بالإفساد والإبطال، فقد خسروا؛ حيث ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وبعد هذا البيان النبوي من محمد ﷺ أنه نذير مبين، يكون بيان الله عز وجل لسنة من سننه، حيث يقول الله عز وجل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

يعني: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ﴾ كانت له أماني كبيرة، في هداية أمته إلىٰ الإيمان، فـ: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ هذه الأماني ومارس دعوته ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ﴾ قلوب بعض الناس الذين هم محل ﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: أتباعه،

الذين يمارس فيهم دعوته؛ الشكوك والأوهام، المتصلة بالله تعالى، أو بالرسول، أو بالرسالة، أو بالقرآن، أو بغير ذلك.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ ويذهب من قلوب المخلصين الصادقين ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من الشكوك والأوهام، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ﴾ فيها أي: قلوب المخلصين ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ ويثبتها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يلقي الشيطان في القلوب، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما ينسخ منها ويذهب، وفيما يبقىٰ من آياته ويثبت.

والحكمة في تمكين الله تبارك وتعالىٰ للشيطان من إلقاء هذه الشكوك والأوهام في بعض القلوب، تتضح في قوله تعالىٰ:

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

أي: ﴿لِيَجْعَلَ﴾ الله سبحانه ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من أوهام وشكوك ﴿فِتْنَةً﴾ واختبارًا ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك، وكذلك اختبارًا لـ ﴿ٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ من عباد الله، الذين لا يتأثرون بموعظة، ولا تنفع فيهم دعوة.

حقًّا: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من المشركين والمنافقين والفاسقين ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق والصواب، فيما يتوهمون ويظنون نتيجة إلقاء الشيطان ما يلقيه في قلوبهم.

وليست هذه هي الحكمة فقط من تمكين الله للشيطان من هذا الإلقاء، حيث يقول ربنا تبارك وتعالى أيضًا:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

أي: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله، وبدينه، وبالقرآن ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لا شك فيه، ولا أوهام حوله ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ وبما جاء فيه، وعلىٰ ذلك ﴿فَتُخْبِتَ﴾ أي: تطمئن ﴿لَهُۥ﴾ ولما جاء فيه ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، حقًّا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ ﴿لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وبعد ذلك اتضح ما يلقيه الشيطان في القلوب حول الرسالة، كما اتضح كذلك موقف الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم منه..!! وثالثًا موقف المؤمنين أيضًا مما يلقيه الشيطان، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

والمعنىٰ: أنه لا إفادة عند الذين كفروا من هذا التوضيح السابق، حيث إنهم سيظلون في ﴿مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ أي: القرآن، أو الصراط المستقيم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا رجاء في الخلاص منه، ولا راحة فيه، وساعتها يوقنون..!! ولكن بعد فوات الأوان.

حيث يكون:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

نعم ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم يوقنون في يوم القيامة ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده، هو الذي ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ ويفصل في أمرهم.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يدخلون ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يدخلون جهنم ﴿لَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ثم يخص الله بعض هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الذين يدخلون جنات النعيم بالذكر تشريفًا لهم.. فقال تعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

يعني: من الذين أوتوا العلم وعلموا أن القرآن هو الحق من ربك، ويدخلون في جنات النعيم ﴿ٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ من ديارهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ابتغاء مرضاة الله، ونصرة دينه ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾ في غير ساحات الجهاد هؤلاء ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الجنة ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ تسعد به قلوبهم، وتقر به أعينهم.

و هذا فضل من الله؛ حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

نعم ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ الله سبحانه ﴿مُّدْخَلًا﴾ في الجنة ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ حيث يكون فيه ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ تبارك وتعالىٰ ﴿لَعَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده، مَن قضىٰ نحبه ومات شهيدًا في سبيل الله، ومن مات علىٰ فراشه، وكان يجاهد قبلًا ويتمنىٰ الشهادة في سبيل الله، ﴿حَلِيمٌ﴾ يصفح عنهم، ويغفر لهم.

ثم يقول ربنا عز وجل:

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضل من الله في الآخرة للذين هاجروا في سبيل الله، ثم قتلوا أو ماتوا و ـ كذلك في الدنيا لا أترك نصرة الباقين منهم؛ حيث إنه ﴿مَنْ عَاقَبَ﴾ من المؤمنين ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي: بمثل العدوان الذي وقع عليه ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بعد ذلك ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ علىٰ مَن بغىٰ عليه.

وهذه سنتنا في نصرة المظلومين، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿لَعَفُوٌّ﴾ لمن عاقب بمثل ما عوقب به ﴿غَفُورٌ﴾ لمن اجتهد في رد العدوان فأخطأ.

ثم يقول سبحانه مؤكداً هذه السنة الربانية، وهي نصرة المظلوم:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

يعني: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر الرباني للمظلوم؛ لأن الله عز وجل قادر، ومن قدرته أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ يدخل هذا في ذاك، ويزيد من هذا في ذاك بقدرته تبارك وتعالىٰ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بأفعالهم، ينصر مَن ظُلم وبُغي عليه منهم. ثم يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر الرباني؛ بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فهو ينصر أهل الحق.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من الأصنام وسائر المعبودات ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ فلا أعلىٰ منه شأنًا ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ فلا أكبر منه سلطانًا، وهكذا أصبح واضحًا: أن النصر من الله القادر لمن أخلص النية، وهو يجاهد في سبيل الله.

لمَّا نبه ربنا عز وجل علىٰ كمال قدرته في نصر أوليائه بأنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أكد علىٰ كمال هذه القدرة بذكر ستة أشياء هي من آثار قدرته، **حيث يقول عن الأول:**

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

ثم يقول تعالىٰ عن الثاني من آثار قدرته:

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

ثم يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

هذه الآية الكريمة فيها **الأثر الثالث** الدال علىٰ قدرته تعالىٰ، وهو: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ بقدرته ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوانات، والنباتات، والجمادات للانتفاع بها.

والأثر الرابع كذلك ، وهو: ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ وهي السفن أي: وسخر لكم السفن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وقدرته وتيسيره، دون أن تغرق.

والأثر الخامس أيضًا: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ بقدرته من ﴿أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أو أي شيء منها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ كبعض النيازك والشهب، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ﴾ في هذا التسخير لما في الأرض، والتسيير للسفن، وإمساك السماء حتىٰ لا تقع علىٰ الأرض ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وعن الأثر السادس من قدرة الله، يقول الحق سبحانه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

يعني: من دلائل قدرته تعالى التي ينصر بها أولياءه، إحياؤكم من العدم، ثم إماتتكم، ثم إحياؤكم للبعث والحساب، وقد نبه بالإحياء الأول علىٰ إنعامه في الدنيا علىٰ خلقه، بكل ما تقدم ذكره، ونبه بالإحياء الثاني علىٰ إنعامه في الآخرة علىٰ المؤمنين، بكل فضل وإحسان، ولمَّا فصل تعالىٰ هذه النعم في الدنيا علىٰ هذا النحو قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ لهذه النعم ﴿لَكَفُورٌ﴾ جحود لفضل الله عليه.

لمَّا كان الحديث عن نعم كلها فضل من الله بلا تكليف، يأتي حديث عن نعم كلها فضل من الله وتكليف، حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يعني: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ نبي ﴿جَعَلْنَا﴾ لهم ﴿مَنسَكًا﴾ أي: شرعًا ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون به، وهو خاص بهم ﴿فَلَا﴾ ينبغي أن ﴿يُنَـٰزِعُنَّكَ﴾ يجادلنك،

أهل الشرائع والأديان السابقة ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمر الإسلام ومناهجه ومناسكه، وكان ذلك لمَّا قالوا عن الذبائح ما قتل الله منها بالموت، أحق أن تأكلوه، عما قتلتم أي: ذبحتم بأيديكم !! ولا تنازعهم وتجادلهم ولا تلتفت إليهم ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ﴾ دين ﴿رَبِّكَ﴾ وشريعته، وعبادته، كما أنزل عليك، حيث ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أي: طريق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ وشرع قويم.

هذا ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ ونازعوك بعد بعدك عنهم، وتلاشئ نزاعهم، ﴿فَقُلِ﴾ لهم ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمال ظاهرة، أو خفية، ولن أجادلكم، وكان ذلك قبل الأمر بالقتال.

ثم يقول تعالىٰ للمؤمنين والكافرين:

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يعني: ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده هو الذي ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ ويفصل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيثيب المؤمنين، ويعاقب الكافرين.

هذا، ولمَّا كان الحكم يقتضي العلم بما يستحقه كل أحد ليتم العدل، فقد بيّن ربنا عز وجل أنه العالم بكل شيء. حيث يقول مطمئنًا حبيبه ﷺ، وكل مؤمن معه:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ بمعنىٰ اعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر هو الذي ﴿يَعْلَمُ﴾ وحده كل ﴿مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾. حيث ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي في السماء والأرض مدون ﴿فِي كِتَٰبٍ ۚ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ التدوين والإثبات للموجودات في اللوح المحفوظ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فلا يغيب عنه سبحانه من ذلك كله شيء، وفي هذا بشارة للمؤمنين، وتهديد للكافرين.

هذا، ومع عظيم النعم التي أنعم الله بها علىٰ خلقه، فإن الكفار يفعلون ما لا يليق يقول رب العزة عنهم:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

أي: و مع وضوح الدلائل علىٰ وحدانيته تعالى وقدرته لهؤلاء الكافرين، فإنهم ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: دليلًا ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ يعني: لا دليل لهم من الوحي، ولا من العقل علىٰ صحة ما يعبدون، وهذا ظلم منهم، ولذلك يهددهم المولىٰ علىٰ ظلمهم بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في عبادتهم ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب يوم القيامة. **كذلك..**

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة علىٰ وحدانية الله وقدرته، ﴿تَعْرِفُ﴾ أي: ترىٰ ﴿فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ أي: أثر الإنكار لها من العبوس والضيق والكراهة، بل إنهم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يبطشون ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ هذه، وهم الرسول ﷺ والمؤمنون والعجيب أن هذه عادة الطغاة مع الدعاة إلىٰ الله في كل زمان ومكان.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ﴾ الذي تسمعون..؟ إنه: ﴿ٱلنَّارُ﴾ التي ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ﴾ بأن يكون مصيرهم إليها وعذابهم فيها، ﴿وَبِئْسَ﴾ هذا ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مصيرهم.

لمَّا قال ربنا تبارك وتعالىٰ عن الكافرين ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٧١] أي: آلهة غير الله القادر..!!

بيّن عجز هذه الآلهة بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

يعني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ضرب الله عز وجل لمَا تعبدونه من دون الله من الأصنام وغيرها مثلًا ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾. وهذا هو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من آلهة باطلة عاجزون، حيث إنهم أي: هذه الآلهة ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ إذا أرادوا ذلك.. حتىٰ ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ﴾ كلهم ﴿لَهُۥ﴾ أي: لخلق هذا الذباب.

وأكثر من هذا دلالة علىٰ عجزهم: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ﴾ هذا المخلوق الضعيف ﴿شَيْـًٔا﴾ ولو تافهًا ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لعجزهم عن ذلك. حقًّا ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ وهي الآلهة ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ منه، وهو الذباب، وأيضًا ضعف الطالب: وهو العابد الكافر، والمطلوب، وهو الصنم المعبود.

بئس هؤلاء، إنهم:

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

يعني: ما عظموا الله كما يستحق، حيث جعلوا هذه الأصنام مع نهاية خستها وعجزها شريكة لله سبحانه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ ﴿لَقَوِىٌّ﴾ لا يصعب عليه فعل شيء ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يقدر أحد علىٰ مغالبته فكيف يجعلون له شريكًا؟!! وكيف يعبدون هذا الشريك؟!!

لمَّا أبطل الله مواقف الذين يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا، وأبطل آلهتهم، وأثبت عجزها، قالوا علىٰ النبي ﷺ: لِمَ أُنزل عليه القرآن من بيننا، وليس بأشرفنا ولا بأكبرنا؟ فرد الله عليهم بقوله في النبوات:

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ ويختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل وغيره ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ رسلًا، كإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم الصلاة والسلام، كما يشاء فالأمر له وحده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوال هؤلاء ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يختاره لرسالته.

لذلك: فهو يجعل رسالته حيث يشاء كما أنه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مما سيقولونه وسيعملونه ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما قالوه، وما عملوه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلها، وسيحاسبهم علىٰ أقوالهم هذه، وعنادهم هذا.

هذا، ولمَّا تحدث ربنا عز وجل عن الإلهيات وعن النبوات، تحدث عن التشريعات والتكليفات مخاطبًا بها أهل الإيمان، حيث يقول جل وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

في هاتين الآيتين الكريمتين يخاطب ربنا تبارك وتعالىٰ المؤمنين مشرِّفًا لهم بهذا الخطاب الإلهي، ومشجعًا لهم علىٰ حسن تنفيذ ما يطالبهم به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مع العلم أن المطلوب هنا مطلوب من الناس جميعًا.

أولها: الصلاة ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾.

ثانيها: العبادة عامة ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: وحدوه، وأطيعوه، ولا تتوجهوا بالعبادة إلىٰ غيره.

ثالثها: فعل الخير كله ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ كله، من عبادة الله، وإحسان إلىٰ خلق الله. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالسعادة في الدنيا، والجنة ونوال الرضوان في الآخرة.

رابعها: الجهاد في سبيل الله ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في سبيل إقامة دين الله ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: ببذل كل الطاقة في ذلك الجهاد.

وبعد أن وضَّحت الآيات هذه المطالب، تبين ما يوجب قبولها ويساعد علىٰ تنفيذها علىٰ النحو التالي:

أولًا: أن الله قد اختاركم لدينه، وشرفكم بذلك ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اصطفاكم من دون الناس جميعًا.

ثانيًا: أن الله يسر لكم وخفف عنكم في هذا الدين، وتنفيذ أحكامه؛ حيث إنه ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى﴾ هذا ﴿ٱلدِّينِ﴾ وتنفيذ أحكامه، وتطبيق تعاليمه ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ضيق.

ثالثًا: أن هذا الدين ليس بغريب عنكم، فهو ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام، فأنتم أولىٰ الناس باتباعه، والالتزام بملته.

رابعًا: أن الله شرفكم بتسميتكم مسلمين، يعني مطيعين، مستسلمين له سبحانه ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ هذا الكتاب ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ الكتاب أيضًا، وهو القرآن، وفي ذلك بيان لفضلكم علىٰ سائر الأمم.

خامسًا: أنكم شهداء علىٰ الناس في الدنيا وفي الآخرة ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وفي الخاتمة: تؤكد الآيات علىٰ ما مضىٰ من المطالب، حيث يقول المولىٰ: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: داوموا عليها.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ من أموالكم لمستحقيها، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ ثقوا به، وتمسكوا بدينه، واجتمعوا حوله، وطبقوا ذلك له؛ إذ ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وناصركم ومؤيدكم ولا ناصر لكم ولا لأحد سواه.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ هو ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لكم هو سبحانه وتعالىٰ.

* * *